مسألة الإصلاح
بين ابن باديس ومحمد إقبال

إعداد الأستاذ: **كمال بومنبر**

الملخص:

الغرض من هذا المقال هو المقارنة بين مفكرين إسلاميين معاصرين هما عبد الحميد بن باديس ومحمد إقبال، اللذان أسهما في تحليل الأزمة العميقة التي عرفها العالم الإسلامي، وقدما الحلول اللازمة لتجاوز هذه الأزمة، كل بطريقته الخاصة، قصد تجديد وإصلاح العالم الإسلامي وتحقيق إقلاعه الحضاري.

Résumé :

Cet article a pour objet la comparaison entre deux penseurs musulmans ; Abdelhamid Ibn Badis et Mohemed Iqbal, qui ont continué à l'analyse de la crise profonde que traverse le monde musulmans, et ont indiqués chacun à sa manière les demandes à suivre aboutir au reconvellement et à reforme du monde musulman afin qu'il puisse réaliser son démarrage civilisationnel.

تهدف هذه المقال إلى طرح بعض الأفكار حول الإصلاح والتجديد بين عملاقين من عمالقة الفكر الإسلامي وهما: عبد الحميد ابن باديس ومحمد إقبال، وكلاهما عاش في فترة تاريخية متقاربة. إقبال بين (1873-1938) ابن باديس بين(1889-1940).

لقد تعددت الجهود الفكرية في العالم الإسلامي لإيجاد مخرج للإصلاح والتغيير لواقعنا الحضاري، قصد إخراجه من وطأة التخلف التي عرفها المسلمون المعاصرون نتيجة عوامل داخلية وخارجية لا تخفى تداعياتها على كل دارس ومتابع لمسار واقع العالم الإسلامي والتحديات التي شكلت تهديدًا مباشرًا للكيان الحضاري لهذا العالم.

وإذا كنا بصدد الحديث عن العالم الإسلامي ومسألة الإصلاح عند كل من ابن باديس ومحمد إقبال، فلما لهما من مكانة بارزة في فضاء العالم الإسلامي، ولما أضافته جهودهما في إثراء المشاريع الإصلاحية التي تهدف إلى تحقيق الإقلاع الحضاري المنشود.

وفي هذا السياق كان من الضروري – في رأي – أن ينصب الاهتمام على القواسم المشتركة أو نقاط الالتقاء بين إقبال وابن باديس، وليس التنقيب على نقاط الاختلاف والتباعد التي لا تخدم في حقيقة الأمر ولا تسهم في تحقيق الإقلاع الحضاري للمستوى الفعال والحيوي لأمتنا وخاصة أن العالم الإسلامي يعيش اليوم في مناخ دولي وعالمي قائم على السيطرة والهيمنة الحضارية الغربية، القائمة على النظرة الأحادية والاستعلائية والمركزية الحضارية.

لقد اهتم كل من ابن باديس وإقبال بنقد الواقع الذي يعيشه المسلمون، إذ أن تشخيص وتقدير الواقع والوقوف على أسبابه وملا باسته شرط أساسي يتوقف عليه منهج الإصلاح الذي هو معالجة لهذا الواقع وهذا ما يؤكده الأفغاني في العروة الوثقى عندما يقول: " لا يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه"[1] (الأفغاني جمال الدين، 1980) إن هذا التأكيد ناتج عن كون أي مشروع إصلاحي إذا لم يشخص الخلل والفساد الذي طرأ على الواقع لا يمكن أن يكون العلاج نافعًا.

ووفق هذا المنحى ينطلق ابن باديس من وعي بخلل ذاتي أو داخلي حل بالعالم الإسلامي يتمثل تحديدا في واقع التدين، حيث وقع الانحراف عن الفهم الصحيح للدين وعن أصوله، فابتعد المسلمون عن الحق شيئًا فشيأ، فأصل الفساد أو الخلل الذي أصاب الفرد والمجتمع يرجع إلى:

1. فساد العقائد التي ينتج عنه اعتقاد في الباطل، وفساد في الفهم وتقليد أعمى للآباء.

2. فساد الأخلاق الذي ينتج عنه فساد في السلوك والعمل.

ولا يمكن إصلاح هذا الفساد – في رأيه – إلا إذا ارتكز هذا الإصلاح أساسا على تصحيح فهمنا للعقائد الصحيحة أي في أصولها وحقيقتها والتمسك بالأخلاق القويمة.

يقول بن باديس في تفسيره "وقد جاء القرآن الكريم مبينا للأخلاق الفاسدة وذاكرا سوء أثرها وقبح مغبتها مبينا كذلك الأخلاق الصحيحة وعظيم نفعها، وحسن عاقبتها، فهذا شفاؤه للنفوس والعقول وهو راجع إلى تصحيح العقائد، وتقويم الأخلاق، وبهما سلامة الأرواح وكمالها وعليها قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها"[2] (ابن باديس عبد الحميد ، الجزائر ،1982).

ويقول كذلك:"إن الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، فالباطن أساس الظاهر"[3].

أما بخصوص محمد إقبال وموقفه فهو ينطلق كذلك من واقع التدين الذي ألِ إليه المسلمون وخاصة في الجانب العقدي والأخلاقي –لقد كان نقده للأوضاع– وخاصة في شبه القارة الهندية قد مكنه من وضع أصبعه على مواطن الضعف والفساد والخلل فقد رأى أن الجهل يسيطر على النفوس والعقيدة يعمها الفساد، وانفصل المسلم عن الحقيقة القرآنية، وهذا ما يتفق فيه إقبال مع ابن باديس وقد أكد ذلك أ.د. عمار طالبي في كتابه **ابن باديس حياته وأثاره** عندما قال: "أما فيما يتعلق بالمصلحين المسلمين المحدثين والمعاصرين أمثال محمد بن عبد الوهاب والأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال وابن باديس فإنهم رأوا أن التدهور الاجتماعي راجع إلى عدم تطبيق الإسلام وإلى انفصال الإنسان المسلم عن الحقيقة القرآنية"[4] (الطالبي عمار، بيروت، 1983).

ومحمد إقبال من الذين يعتبرون أن الإصلاح والتغيير ينبغي أن يبدأ بالإنسان ومن هنا ضرورة تقوية ذات الإنسان وتربيتها حتى تحقق وجودها الحضاري، ومن جهة أخرى ضرورة تنقية العقيدة مما أصابها من فساد، وتطهير النفوس مما ران عليها من سكون واستسلام للواقع وتقليد للغير.

لقد ركز إقبال على بناء ذات الإنسان المسلم، ودعا إلى تربيتها وتقويتها بالعمل الفعال والجهد المستمر لما لاحظ من تخلف المسلمين عن ركب الحياة ولاسيما المشاركة الفعالة في تحقيق الخلافة على الأرض، وعلى هذا الأساس يميز إقبال بين من الوجود الإنساني المشترك بين كل الناس من حيث خضوعهم للسنن الكونية والقوانين الطبيعية ولا فرق في ذلك بين المسلم وغير المسلم، والوجود الإيجابي الذي هو وجود رسالي ومن هنا يجب أن يعيش المسلم هذا الوجود الإيماني لنفسه ولغيره يقول إقبال:" لا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم لأن

وجوده رمز للرسالات"[5] (الندوي أبو الحسن، الكويت 1978) إذن لا يصح أن يكون المسلم سلبيا، ولهذا انتقد إقبال التصوف السلبي ونبذه بشدة عندما جنح إلى السكون والكسل والجمود والاستسلام للأمر الواقع وهذا على الرغم من الإشراقات الصوفية المعتبرة التي تمتع بها إقبال ،لأن التصوف الحقيقي عنده هو الذي يقود العالم ويسخره يقول إقبال في كتابه جناح جبريل:

يا إخوتي الصوفية أنا أنكر زهدكم

زهدكم الذي هو فاقة وعذاب

الشعب الذي أضاع تراث تيمورلنك

لا يستحق الزهد ولا الملك[6]

(IQBAL MOHAMMED, PARIS,)

وفي هذا الصدد انتقد ابن باديس التصوف السلبي الذي هيمن على المجتمع الجزائري بالخضوع، وخاصة أنه كان مرتبطا بالبدع والخرافات والأباطيل التي نتج عنها الإذلال والاستغلال والتواكل وتجميد للعقول، وتعطيل طاقات الإنسان عن العمل الجاد والنافع.

أما التصوف الإيجابي كما يقول ابن باديس فهو ما كان من باب تزكية النفس وتقويم الأخلاق والتحقق بالعبادة والإخلاص فيها"[7] (الطالبي عمار)، وهذا هو معنى الصوفية حينما حافظت على هذه المعايير والتزمت بها في العبادة والسلوك والمعاملات ،ويكفي أن نذكر في هذا السياق الأمير عبد القادر الذي قاوم الاحتلال الفرنسي .

هذا باختصار شديد موقف كل من ابن باديس وإقبال من مسألة نقد الواقع وإصلاحه داخليا، أما فيما يخص الأمر الخارجي، أي الموقف من أوربا أو الغرب فقد تم التركيز على نقطتين:

- مسألة الاستفادة من حضارة ومدنية الغرب.
- مسألة مواجهة الاستعمار.

1. مسألة الاستفادة من الغرب:

لقد تضمن المشروع الإصلاحي لدى كل من ابن باديس وإقبال ضرورة الاستفادة من منجزات العصر العلمية والتقنية التي حققها الأوربيون قصد إنهاض الأمة الإسلامية غير أنه تبين لي عند الرجوع إلى نصوص ابن باديس وإقبال أنهما وأن كانا بصفة عامة مهتمين بمنجزات العصر إلا أن هذا الاهتمام لا نراه يصل إلى أن يرفعا فكرة الاستفادة والأخذ من منجزات حضارة ومدنية الغرب شعارا أساسيا فلم

يجعلا منه أمرا أوليا وملحا لإصلاح وتغيير الواقع المتخلف كما ذهب إلى ذلك آخرون(أحمد خان في الهند وخير الدين التونسي في تونس مثلا)

يقول أحمد خان:" النور يأتي اليوم من الغرب بعد أن كان يأتي من الشرق ،فيجب أن نأخذ من أوربا علومها ومدنيتها ،ونسير مع الزمان في مضمار الحياة العصرية"[8] (النجار عبد الحميد، بيروت)

ويقول خير الدين التونسي في أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك.

"إن التمدن الأوروبي تدفق سبله في الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيخشى علل الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار،إلا إذا حذوا حذوه وبهذا مجراه في التنظيمات الدنيوية [9] (التونسي خير اليد، بيروت، 1985).

إن الخروج من التخلف حسب ابن باديس وإقبال لا يقوم على استنساخ لما عند الأوروبي من علوم ونظم لأن أصل المشكلة التي أدت إلى التدهور والتخلف عند كل من ابن باديس وإقبال كما يرى د. عمار الطالبي أساسها" انفصال الإنسان المسلم عن الحقيقة القرآنية " ولهذا فإن الشرط الأول والضروري للخروج من هذا التدهور هو إعادة ربط المسلم بهذه الحقيقة القرآنية إي بالتزام المسلمين بدينهم الذي يشكل قوتهم الذاتية مع أخذ بعين الاعتبار ما وصل إليه الغرب من معارف .

وهذا ما يؤكده ابن باديس في الشهاب سنة 1926 حيث يقول:

"حافظ على حياتك ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك، وإذ أردت الحياة لهذا كله فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة. كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارتك وفي طاعتك وفي فلاحتك وفي تمرنك ورقيك "[10] (ابن باديس عبد الحميد،1937).

أما إقبال وعلى الرغم من دراسة الوافية المتعمقة للفكر الغربي ومعرفته بخباياه بعق فإنه دعا إلى عدم تقليده تقليدا أعمى يقول في **كتابه تجديد الفكر الديني في الإسلام:** " لقد حاولت في هذه المحاضرات بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناءا جديدا أخذا بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور"[11] (إقبال محمد ،1955)

2. مسألة مواجهة الاستعمار:

من المميزات الأساسية في شخصية ابن باديس مقاومة الاستعمار الفرنسي وفي الحقيقة أن مقاومة هذا الاستعمار تتطلب دراسة متأنية وذلك نظرا لما يلي:

1. صعوبة فصل مواقفه السياسية عن السياق التاريخي والتي كانت محكومة بظروفها وسياقها المحلي والإقليمي والعالمي.
2. منهجيته وإستراتيجيته في مواجهة الاستعمار القائمة أساسا على المرحلية وتجنب الارتجال و الاستعجال في الوسائل و الأساليب والمراحل باختصار إتباع منطق الأولويات، غير أنه يمكن أن نذكر بعض النصوص التي تبين لنا مقاومة ومواجهة للاستعمار قال في الشهاب 1937.

أيها الشعب الجزائري،

أيها الشعب المسلم،

أيها الشعب العربي الأبي! حذار من الذين يمنونك و يخدعونك حذار من الذين ينومنك و يخدرونك ، حذار من الذين يأتون بوحي من غير نفسك و ضميرك، من غير تاريخك و قوميتك ومن غير دينك وملتك استوح الإسلام، ثم استوح تاريخك، ثم استوح قلبك اعتمد على الله ثم على نفسك.

ويقول كذلك:" إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا. وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله ،ويقولون إن حال الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد"[13] (الطالبي عمار)

أما إقبال الذي عاش ظروف الاستعمار في شبه القارة الهندية فقد عمل على مواجهة الاستعمار ونشر الوعي بين الناس لمقاومته يقول:" مهلا أيها الفاضلون، إياكم و الركون إلى الإفرنج والاعتماد عليهم ارفعوا رؤوسكم، ألا إنه لا حيلة لكم ولا وزر إلا أن تطردوهم عن منهلكم وتذودوهم عن حوضكم"[14](الندوي أبو الحسن).

في الحقيقة تبقى العديد من القضايا والموضوعات المتعلقة بالإصلاح بين كل من ابن باديس وإقبال غير متطرق إليها، ولا يتسع المقام لعرضها ومناقشتها، لكن يمكن أن نخلص إلى ما يلي:

1. أن تجربة كل من ابن باديس وإقبال تعتبر تراثا إسلاميا ثمينا ،فمن الواجب اليوم الإلمام به والاستفادة من إيجابياته .
2. كلاهما قام بمحاولة فكرية وحركة فعلية لبيان القيمة الإيجابية للإسلام الحضاري والدفاع عنه ضد الاستعمار الغربي الذي أسهما كل منهما في مقاومته ومواجهته.
3. وجود وحدة فكرية أو على الأقل في الإشكالية الحضارية بين المصلحين والمجددين في المشرق والمغرب ولا مجال للحديث عن وجود قطيعة معرفية بينهما.

الهوامش:

1. الأفغاني (جمال الدين). **العروة الوثقى**،(بيروت: دار الكتاب اللبناني 1980) ص55.
2. ابن باديس (عبد الحميد). **مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**،(الجزائر: مطبوعات وزارة الشؤون الدينية 1982) ص 187.
3. المصدر نفسه، ص 239.
4. الطالبي (عمار). **ابن باديس. حياته وآثاره. الجزء 1**.(بيروت: دار الغرب الإسلامي 1983) ص 99.
5. الندوي (أبو الحسن). من **روائع اقبال**،(الكويت : دار القلم 1978) ص 92.
6. Iqbal (Mohammad). **L'AILE de Gabriel**.(trad : S.Bussac Paris Edition Albin Michel) P 71.
7. الطالبي (عمار). **ابن باديس. حياته وآثاره. الجزء 3**. ص 319.
8. النجار (عبد المجيد) . **مشاريع الإشهاد الحضاري**.(بيروت : دار الغرب الإسلامي). ص86.
9. التونسي (خير الدين). **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**.(بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر 1985) ص 206.
10. ابن باديس (عبد الحميد). **مجلة الشهاب. السنة 1937**. ص
11. إقبال (محمد). **تجديد الفكر الديني في الإسلام**.(ترجمة عباس محمود القاهرة دار التأليف والترجمة والنشر1955) ص 7.
12. ابن باديس (عبد الحميد). **مجلة الشهاب. السنة 1937**. ص
13. الطالبي (عمار). **ابن باديس. حياته وآثاره. الجزء 3**. ص 320.
14. الندوي (أبو الحسن). من **روائع اقبال**. ص 85.

27. Ibid
28. CLAUD. LEVY-STRAUSS : Tristes, Tropiques. Plon. Paris 1955. PP : 434-435.
29. CLAUD. LEVY-STRAUSS : Tristes, Tropiques. Plon. Paris 1955. PP : 434-435.
30. JACQUES. BERQUE ; Les Arabes d'hier a demain. Ed. Seuil. Paris. 1960.
31. JACQUES, AUSTRUY : L'Islam...op. cit. p : 790.
32. Ibn-Khaldoun : op. cit. p :90.
33. MAXIM. RODINSON : Islam et capitalisme.
34. Med.HAMIDULLAH : op. cit. pp :599-609.
35. Le Coran : CVI.
36. MAXIM. RODINSON :op. cit. p :52.
37. IBN-KHALDOUN :op. cit. pp :813-814.
38. MAXIM. RODINSON :op. cit. p :70-71.
39. ABDELLAH LAROUI : Histoire du Maghreb, T :1 Ed. Maspero. Paris.

2. JACQUES, AUSTRUY : L'Islam face au développement économique. COLL : économie Humaine. Les Editions ouvriers. Paris 1961. P. 58.
3. Intérêt, usure.
4. Le Coran. Tra. D.MASSON. COLL : FOLIO. Gallimard. 1967, IV :11.
5. Ibid. IV : 12.
6. Ibid. IV : 176.
7. HENRI. LAOUST. Les Schismes dans L'Islam. S.N.E.D. Alger. Payot. Paris. 1965. P : 56.
8. Ibid. p : 56.
9. IBN-KHALDOUN : Discours sur l'histoire universelle. Tra :U.MONTEIL.SINDBAD. Paris.1978 :1.pp :403-404.
10. MAXIM. RODINSON : Islam et capitalisme Ed. Du Seuil. Paris 1966. p. 131.
11. 11-Med.HAMIDULLAH : Le prophète de L'Islam. T : II son œuvre. Librairie philosophique. J. Vrain. Paris 1959.P :612.
12. CF. ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM T : 3. Librairie c. Klinskieck. Paris 193. P. 1229.
13. IBN-KHALDOUN : op. cit. p : 790.1978.
14. Le Coran : II :280.
15. Ibid. II : 275.
16. Ibid. II :282.
17. Ibid. XXX :39.
18. Ibid. II :276.
19. Ibid. II :278.
20. Ibid. II :279.
21. Med-HAMIDULLAH: op.cit.
22. MAX. WEBER : La morale protestante et l'esprit du capitalisme. Plon. Paris 1964.
23. Med. HAMIDULLAH : op. cit. p 612.
24. Le Coran : XII :9-10
25. RUSES, ASTUCES.
26. JACQUES, AUSTRUY : L'Islam...op. cit. p 89.